الفصل الثاني
قصة اكتشاف الماضي الرافدي على يد الأوروبيين

1 . اكتشاف المصادر الأثرية والكتابية:

تعود بداية قصة اكتشاف الماضي العربي القديم في مصر والعراق وسورية إلى عصر النهضة الأوروبي، وخاصة عصر الأنوار، حيث طرحت أسئلة عن صحة أخبار الكتب الدينية عن الماضي الفرعوني والبابلي والآشوري، والتي وردت في أخبار وكتابات المؤرخين الإغريق والرومان أيضاً. وأدت تلك التساؤلات إلى بدء الرحلات الاستكشافية الأوروبية، وخاصة تلك المرافقة لحملة نابليون على مصر في مطلع القرن التاسع عشر.

من جهة أخرى لا يمكن كتابة أي تاريخ والقديم خاصة دون توافر معلومات ومعطيات تؤلف من خلالها النص الذي تقرأه. هذه المعلومات نستمدها من مصدرين أساسيين، ينطبق على كتابة التاريخ عامة. إذ أن الوثيقة والأثر هما عماد عمل المؤرخ.

وقد نستعين بالآثار العضوية من بقايا النبات أو الحيوان أو الإنسان ونستعين بتقدير عمرها عن طريق إشعاع الفحم، وهو أمر لا مجال لشرحه هنا. إن الوثائق الرافدية متوافرة بكثرة، ومعروفة لدينا بالنصوص أو الرقم المسمارية . لأن لها شكل المسمار أو الاسفين . أو الرقم الطينية لأنها مصنوعة من الطين الفخاري. ولكن الحصول عليها يحتاج إلى أعمال حفر دقيقة، لأنها مطمورة تحت تراب آلاف السنين. وكذلك نحصل على المواد والآثار المادية والعضوية من خلال أعمال الحفر والتنقيب.

بدأت الحفائر الرافدية في العراق خاصة منذ عام 1843 وما زالت مستمرة وبخاصة في شمال سورية، ولم تتوقف إلا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهي متوقعة في العراق أو معطلة منذ حربه مع إيران (1981 . 1989) ثم حربه مع الكويت وحلفائها العرب والأمريكان (1990). وقد بدأت أعمال الحفر من قبل هواة ومغامرين متعطشين للمعرفة وجمع الآثار والتحف الفنية، وتبدل هذا الاتجاه قليلاً منذ مطلع هذا القرن باتجاه حفائر منهجية ومخططة وعلمية يقودها متخصصون مدرسيون، ليس بقصد جمع النفاس

وحسب، بل التعرف على أماكن عيش الإنسان القديم وفهم كيفية هذا العيش، بقصد فهم كثير من الأمور المتعلقة بحضارتنا المعاصرة، شرقاً وغرباً. وتطور علم الحفر في الرافدين، لأسباب متعددة، أهمها صعوبة التنقيب في تلال متراكمة منذ آلاف السنين. ذلك أنه يجب إزالة الطبقات الترابية الواحدة تلو الأخرى لفهم كل منها بصورة مستقلة، ولذا لابد من التوصل إلى فن حفر يسمح بتمييز الطبقات الترابية بما تحويه من آثار ومواد كتابية أو غير كتابية، وبالفعل فقد تشكلت البعثات الأثرية الأوروبية والأمريكية من علماء وخبراء مرموقين ومعروفين، وضمت فرقهم مختلف الاختصاصات في التاريخ والجغرافية والهندسة والطبوغرافيا والفيزياء... إلخ. واستعانوا بأعمال الحفر بالعمال العراقيين والسوريين الذين استطاعوا بسرعة بداهتهم وقربهم وارتباطهم بماضي أسلافهم أن يتقنوا فنون الحفر، وصاروا يميزون بسرعة طبقات التراب من خلال ضربات معاولهم الدقيقة وملاحظاتهم العفوية، فكانوا خير معين للعالم الأوروبي والأمريكي. أما جامعاتنا وخبرائنا في هذا المجال، فقد ظلموا خجلين مترددين في هذا المجال لأسباب عديدة، لا مجال لذكرها الآن.

وقامت الجامعات في أنحاء العالم وكذلك الهيئات العلمية بالاتفاق وتمويل هذه البعثات بالمال والعتاد العلمي، وقد حققت المزيد من المعارف والمكاسب العلمية والمادي مما زاد في أعداد زوار متاحف الغرب وأمريكا، وزاد العطاء في هذا المجال ومنذ أكثر من تسعين عاماً هناك أكثر من أربعين تل ما تزال أعمال الحفر فيها مستمرة وأعطت نتائج رئيسة، ومهمة، وهناك أكثر من أربعمائة تل خضعت لأعمال سبر وحفر أولية. وقد تبدلت مفاهيم التاريخ القديم بصورة جذرية، وصار أمام المؤرخ شواهد مكتوبة وأثرية مباشرة، بعد أن كان عليه أن يكتفي بمعلومات الكتب الدينية عن أحوال القدماء وهي معلومات غير مباشرة، وليست مكتوب بقصد التأريخ، أو معلومات متفرقة ومفيدة لبعض المؤلفين الإغريق والرومان والعرب، وهكذا يعود الفضل للمنقبين الآثاريين في وضع مصادر التاريخ القديم أمام طاولة البحث والمناقشة والتأليف، وهكذا سيكون أساس حديثنا وكتابتنا عن التاريخ العراقي الرافدي القديم تلك التلال التي تبدو كأنها مصنوعة باليد، ولكنها في الحقيقة، ليست إلا ركام المدن والقرى القديمة، فصارت كلمة تل مفتاح العلم

وانتقلت إلى اللغات الأوروبية لتدل على القرية أو المدينة المطمورة تحت التراب. ويضم التل عدداً من الطبقات والمستويات تعود لكل عصر من الماضي. ولذا لابد من استعراض علمي وتاريخي لما يسمى علم الآثار العراقي الرافدي ورواية بعض أسرار اكتشافاته.

2 . المدن الترابية والفخارية والتنقيب العلمي بدل العشوائي:

إن الزائرين لموقع الآثار العراقية الرافدية، يصابون بالدهشة التي تخفى وراءها بعض خيبة الأمل، فهم يبحثون ولا شك، عما سمعوا أو تخيلوا عن أبراج بابل وزقورات أور. ولكن للأسف أن لا هذه ولا تلك قد أبقى عليها الدهر أو حتى على جزء منها. وكل ما يمكن أن يراه السائح العادي من معالم أثرية كبيرة في العراق هو زقورة أور وبوابة عشتار وقد رممتا أو لنقل إنها بنيتا من جديد، إذ أن الدهر لم يبق من أصلهما شيئاً يذكر. وهناك معلم آخر من عصر لاحق هو قوس نصر طيسفون Ctesibhon، وما عدا ذلك فليس هناك سوى التلال المرتفعة وسط سهول مليئة بالفخار المهشم من كل العصور. وإذا ما وصل السائح إلى تل مُنقب، فإذا لم يكن برفقة عالم بالآثار فسيجد صعوبة في فهم ما يضمه التل من طبقات ترابية قد لا تعنى له شيئاً، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم يبق من المدن القديمة سوى ركام تحول مع الزمن إلى تلال ترابية؟ [1].

إن الجواب سهل ولكن يتطلب بعض الشروح. فقد عمرت هذه القرى والمن من اللبن الطيني المصنوع باليد والمشوي تحت أشعة الشمس منذ الألف التاسع قبل الميلاد، وتمكن الإنسان من تحسين صناعتها شيئاً فشيئاً فقام بخلطها بالقش أو التبن فصارت أكثر مقاومة. واكتشف أخيراً أن شيها بحرارة الأفران يزيد مقاومتها ويجعلها كتيمة للمطر والرطوبة. ولكن هذه الطريقة مكلفة، ولذا استخدمت لتعمير واجهات المعابد والقصور وكذلك الأبراج مع ما يتطلب ذلك من أخشاب مرتفعة الثمن مستوردة من لبنان

---

(1) ن. ج.رو : ص30.

G. Roux, La Mesoptamie. P. 30.

وانظر ص 5، 3 من المرجع نفسه من أجل مزيد من المراجع المتعلقة بالحفائر الأثرية.

والأمانوس. واستخدم القش والقصب مع الطين لصنع الأسقف. والطينة الداخلية والجص والكلس لطليها في النهاية.

فقد كانت البيوت الرافدية طينية سميكة الجدران مرتفعة الأسقف قليلة النوافذ أو أنها لا تحتل مساحة كبيرة، فهي، في نهاية المطاف، بيوت مريحة ورطبة في الصيف ودافئة في الشتاء. ولكنها تتطلب عناية وصيانة مستمرتين، إذ يجب تبديل طبقة السطح الطينية التي قد تذوب بفعل الأمطار، وتتراكم الطبقات الترابية القديمة أما المنازل فتشكل مستويات مختلفة تدفع من مستوى الأرضيات، وتسبب غرق البيوت عند هطول أمطار غزيرة[2].

إذا ما طبقت شروط صيانة البيوت الرافدية فإنها قد تدوم طويلاً، إلا إذا تعرضت للكوارث وهي: الفيضانات والحروب والأمراض والهزات الأرضية. وقد تهجر المدينة بكاملها أو بجزء منها. وعندها يتهدم السطح إما نتيجة الإهمال أو بفعل الحرائق. وتلحقه الجدران الطينية، فتملأ الحجرات والأدوات بالتراب. وقد تسبب الحروب تدميراً مباشراً وسريعاً لمثل هذه البيوت. فقد يلجأ الأعداء إلى حرق المدينة بكاملها إذا لم يرغبوا بسكناها. وهذا ما يسبب هرب السكان المفاجئ، حيث يتركون كل شيء في البيوت، وهذا ما يؤدي إلى حفظ كثير من الأدوات وكذلك النصوص الفخارية، بعد أن يطمرها الركام. وهكذا تأتي معاول الآثاريين على مثل هذه البيوت لتجدها على حالها منذ آلاف السنين. مما يسمح بدراسة مفيدة... وهكذا فإن مصائب قوم عند قوم فوائد..

---

(2) نذكر هنا ثلاثة أهم المراجع المتعلقة بموضوع البناء الرافدي وفنون العمارة والتحت التي اعتمدنا عليها. ومن شاء المزيد فليعد إلى إحدى المراجع هذه ليجد المزيد.

1 – A . Parrot, Archeologie Mesopotaminne, Paris 1927. 4 Vol.

هذه المجلدات الأربع

جديرة بالقراءة لكل من يهتم بالآثار رغم قدمها.

2 – B . Hrouda , Mesopotamien , Balylionien, Iran und Anatolien, in; Hand – buch der Achaologie Munchen. 1971.

3 – Ston Lioyd. The Archaeoligy of Mesopotomian, London. 1978.

وقد يحدث بعد عدة قرون أن يأتي سكان جدد ويقررون التوطن فوق المدينة المنكوبة لأسباب مختلفة تتعلق بالموقع الجغرافي والتجاري أو الزراعي أو الديني، فيعمدون إلى تسوية بعض الركام ويستخدمون الجدران القديمة كأساس لجدرانهم الحديثة. فإذا ما تكررت طريقة الدمار والسكن الجديد على التوالي وخلال آلاف السنين . وهذا ما حدث لكثير من المدن . فتتشكل طبقات من آثار السكنى في كل مرحلة. وهناك من المدن ما لم يتوقف الإنسان عن السكن فيها منذ أقدم العصور حتى الآن مثل كركوك وأربيل وحلب وغيرها ومنها ما توقف السكن فيها إلى الأبد. ومنها ما تم الحفر فيه ومعرفة بعض أسرارها، ومنها ما يزال ينتظر معاول الآثاريين ومنها ما لم تحفر أبداً لأسباب السكن الإنسانية مثل حلب ودمشق وغيرهما. ويمكننا أن نتصور عوامل الزمن خلال آلاف السنين حيث تكون الرياح والأمطار والسيول، مثل الأيدي الناعمة التي تطمر المدينة القديمة شيئاً فشيئاً وتجعلها ضمن غلاف من التراب الطيني على شكل هضبة صغيرة أطلق عليها العرب اسم تل، والاسم هذا من أصل أكادي (تلو Tilu) ونجد في عبارات بعض الملوك الآشوريين المحاربين المنقوشة في حولياتهم: «سأجعل المدينة تلاً من الركام والخراب (كرمو Karmu)».

إن عمل الآثاري اليوم هو فرز هذه التلال بالمعاول الدقيقة، والتعرف على كل ذرة تراب وقراءتها تاريخياً، فيتتبعون آثار الجدران وطبقات الأرضيات ويرسمون مخططاتها بدقة، ويفندون رسمها وبناء ما قد يستطيعون منها، ويحفظون ما يجدونه من أدوات نفيسة وغير نفيسة وإنما أداة علم وتعليم. وعند كل مستوى يجب وضع تاريخ لها وتصنيفها مع محتوياتها ومن ثم يتم الانتقال إلى طبقة أخرى من التل. ويمكن للآثاريين أن يتبعوا طرائق علمية واحدة في الحفر، وقد يختلفون قليلاً وفق ضرورات العمل[3]. ولكن قبل

---

(3) من أجل طرائق الحفر والتنقيب انظر:

«Stratigraphy».

A . Parrot, AM, II, PP. 15 – 28; Sir Wheeler , Archaeology from the Earth, London 1956; Seton Lioyd , Mounds of the Near East, Esinburgh, 1962, Foundations in the dust. London, 1980, 2e ed.

اتخاذ قرار نهائي بالتنقيب في أي تل فلابد من دراسة طبوغرافية أرضية، ومن ثم إجراء بعض الأسبار «Sondages» وتتم عن طريق حفر بضع حفر صغيرة (2 . 3 حفر) في أماكن متباعدة ومختارة من سطح التل. ونبدأ بالتقاط الأدوات والأشياء التي نصادفها، وبخاصة الفخار والأدوات الحجرية التي تسمح بوصف تاريخ ما. ونقوم برسم وتسجيل أثر الجدران التي تظهر ويتم إفتراضها نتيجة الحفر. ويجب تسجيل جميع الملاحظات التي تدل على تبدل سكان الموقع ألا وهي الأدوات وآثار العيش وبقاياه، على أرضيات الغرف، مما يدلنا على تبدل ثقافي واجتماعي.

ويمكن القيام بسبر من نوع مختلف وذلك بحفر شق طويل يخترق التل من منتصفه أو من الأماكن المناسبة، مما يسمح لنا بتكوين فكرة عن مستوياته وهو ما يعرف بالمقطع الستراتيجرافي Stratigraphy أي علم دراسة تكوين طبقات الأرض. ولكن هذا النوع من الأسبار يتوخى السرعة على حساب الدقة. إذ لا يمكن من خلاله معرفة أو فهم توزع البناء القديم. إنما قد يسمح بالعثور على مكتشفات مهمة عن طريق الصدفة. هذا الاختبار هو اختبار مبدئي أصلاً، لكي يسمح لنا باتخاذ قرار التنقيب، أو، لا. كما تستخدم هذه الطريقة السريعة عند الاضطرار كالحالات التي ستغمر فيها بعض التلال بمياه السدود الاصطناعية أو غير ذلك[4].

وبعد أن تتم الأسبار الأولى كما ورد آنفاً، واتخاذ القرار ببدء الحفر، يجب اختيار مساحة مناسبة من سطح التل، يظن أنها تضم أهم أبنيته القديمة، وتقسم هذه المساحة إلى مربعات متساوية بمساحة لا تزيد على 10 × 10 م ويمضي الآثاري مع فريقه من مساعدين متخصصين بالحفر والفخار والكتابات القديمة وطبوغرافيين ومهندسين،

---

(4) وهكذا الحفائر التي تمت قبيل بناء سد الفرات (سورية). حيث تم استقدام بمئات من مختلف الجامعات ومؤسسات علم الآثار للمساهمة في إنقاذ بعض ما يمكن إنقاذه من التلال التي غمرت بالمياه وأصبحت الآن في قاع بحيرة السد. كما يوجد حملة إنقاذ أخرى على ضفتي الخابور والدجلة.. إلخ. كما يوجد الآن في سورية حملة دولية على طول الفرات شرقي مدينة حلب. ن. من أجل ذلك:

J. C. Margueron (Ed). Le Moyen Euphrate,, Leiden, 1980.

يمضون جميعاً في أعمال الحفر. مربعاً بعد الآخر، رافعين الطبقات الترابية الواحدة تلو الأخرى، بكل دقة وعناية، وبعد رسم وتسجيل كل تبدل فيها أو لقية مهما ضئُل حجمها أو قيمتها، وكلما تقدم الحفر بدأت تظهر معالم الأبنية من خلال بقايا أرضياتها وأسقفها وجدرانها وأساساتها. ويمكن توسيع رقعة هذه المربعات حتى تشمل التل بكامله وهذه العملية قد تستغرق سنوات وسنوات تصل إلى قرن أحياناً كما في بعض المواقع العراقية القديمة. ولعل أقدم حفائر منظمة سورية هي تلك التي جرت في ماري عام 1933 وما تزال قائمة. ولا شك أن عمق المربعات آنفة الذكر يجب أن يصل إلى الأرض العذراء حتى تنتهي طبقات التوضعات الإنسانية.

ونذكر هنا ثانية أن لابد من تصوير وتسجيل جميع تلك الخطوات والمراحل وما يتخللها من لقى وما تفصح عن بنية قديمة. ولا يمكن في أي حال من الأحوال، استخدام أية آلية للحفر، بل يكتفي علماء الآثار المعول الصغير أو شوكة ومجرفة بحجم الكف ليس إلا، وذلك بعد تنظيف كل طبقة من ركامها بوساطة عمال الحفر الذين يصبحون ذوي خبرة في هذا المجال، وجعل أدواتهم لا تتعدى المعول والرفش العاديين.

ورغم كل هذا فإن التنقيب الآثاري هو نوع من التخريب إذ أن التل المطمور الذي حافظ على بقايا آلاف السنين، قد تعرض لمعاول الحفارين ولكن هذا شر لا بد منه، كي نفهم الماضي ونعثر على ألغاز الحاضر، كما لا يمكن أن يتم إنقاذ أو حفر المدن المطمورة بأكملها فذلك يتطلب قروناً وقروناً إلا أن الأفضلية هي التي ترشح تلاً دون آخر وجزءاً من التل دون الآخر وهكذا، كما لا يمكن القيام بالحفر خلال جميع أيام السنة، وبخاصة في بلادنا الحارة صيفاً، وهناك أشهر الربيع والخريف. وغالباً ما يختار الجامعيون أشهر نهاية العام الدراسي. ولذا فإن مدة الحفر ضئيلة بالمقارنة مع حجم العمل الموجود، وذلك القليل يتطلب إنفاقاً باهظاً يتردد المسؤولون أمامه رغم أهميته بالنسبة للآثاري والمؤرخ والتاريخ.

تاريخ الآثار والجداول الزمنية:

إن تأريخ الآثار وإعطاءها رقماً تأريخياً وإنشاء سلم زمني وهو ما يعرف باللغات الأوروبية Chronology أمر أساسي في إنشاء وكتابة الماضي. ولهذا فإن جميع الطبقات واللقى التي يعثر عليها الآثاري، تخضع لدراسة مقارنة تفضي إلى تأريخها ووضعها في الإطار الزمني. ويمكن لهذا الأمر أن يكون سهلاً للغاية أو العكس تماماً. إذ يبدو لنا سهلاً إذا ما عثرنا على كتابات أو نقوش مثل: عبارة منقوشة بالآكادية على حجر أو فخار تعني «قصر شاروكين ملك آشور» إذ يمكننا تأريخه بسهولة لأننا قد نعلم مسبقاً متى حكم هذا الملك شاروكين. ولكن للأسف فإنه لا يعثر إلا ما ندر على أدوات منقوشة بالكتابات. وبخاصة تلك الأواني والأدوات التي تعود لفترة ما قبل التاريخ، أو ما قبل اختراع الكتابة. ويكون التأريخ هنا تقريبياً، يعتمد على مواصفات كالشكل والتركيب والحجم والنمط أو الطراز. وقد اكتسب الآثاريون خبرات طويلة شخصية وسلفية تجعل منهم قادرين على التاريخ التقريبي لمعظم اللقى والآثار، وباتوا يعلمون مسبقاً أن نوعاً معيناً من اللبن الفخاري أو الطوب، ونوعاً معيناً من المزهريات والنمارق من شكل معين وزينة خاصة، وأن أسلحة من طراز ما ونحت من طراز محدد يمكن أن يعثر عليه في مستوى محدد بعد الحفر في التل. فإذا ما جمعت هذه اللقى درست فإنها تشكل بمجموعها معطيات تحدد ما يسمى مستو أو طبقة ثقافية Cultural Strata.

ويكفي هنا أن نعثر على أي مادة كتابية على أي أثر من هذه الطبقة تلك بكاملها. فإذا لم يتوافر هذا الأمر فليس أمام الآثاري سوى اللجوء إلى المقارنات بين لقى هذه الطبقة وما يماثلها أو يقاربها من لقى سبق التعرف عليها وتأريخها في أماكن أخرى. مثال على ذلك[5]:

يوجد مزهريات ونمارق فخارية في عدد من التلال الرافدية ذات شكل وزينة محددة، يعثر عليها المنقبون، عادة، تحت طبقة ثقافية محددة وتدعى بفخاريات جمدت نصر Jemdat Nasr. كما يوجد أختام اسطوانية الشكل ذات نمط محدد وطوب فخاري ذو

(5) ن. مرجع سبق ذكره. G. Roux, P. 33.

شكل محدب من أحد أطرافه، حيث يختلط فوقه طبقة ثقافية تحتوي على فخار مختلف غير مزين ولونه أسمر فاتح . صوفي أو رمادي أو أحمر .

وبعد دراسة مجموعة الأختام تلك وكتاباتها (انظر فيما يلي)، فقد تم تأريخ الطبقة التي تضم تلك الأختام الاسطوانية والطوب المحدب إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وبالتحديد إلى المرحلة الأولى في عهد لسلالات الباكرة أ والعهود ما قبل شاروكين الأكادي أي نحو (2900 . 2334 ق.م). أما الطبقة السفلى التي تضم فخاراً وحسب فلا تؤرخ بهذه الطريقة، بل تؤرخ مقارنة مع فخار من مستوى ثقافي يسمى فخار ثقافة أوروك نسبة إلى مدينة أوروك السومرية القديمة جنوبي العراق، حيث عثر على كميات كبيرة من هذا النوع من الفخار للمرة الأولى. وعلى هذا يمكن تأريخ طبقة جمدت نصر أعلاه بين فترة أوروك وبداية السلالات الباكرة وتنتهي نحو 2900 ق.م، ويصعب تحديد بدايتها تماماً، وإنما توجد طرق تأريخ تقريبية.

** إن غاية التأريخ هو الوصول إلى رقم محدد ضمن السلم الزمني للماضي البيعد، وهناك طرائق مختلفة للتأريخ.

كيف يتم التأريخ؟

1 . لقد أرخ الإغريق سنواتهم انطلاقاً من السنة الأولمبية الأولى وهي: 776 ق.م.

2 . أرخ الرومان بدءاً من سنة تأسيس روما 753 ق.م.

3 . وأرخ المسلمون انطلاقاً من سنة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وهي السنة 622 بعد الميلاد.

4 . وأرخ المسيحيون انطلاقاً من ميلاد السيد المسيح.

أما الرافديون فلم يؤرخوا بهذه الطريقة وذلك قبل العصر الهلنستي Heelenic , Hellene, Hellenistic أي اليوناني . الإغريق . الشرقي، حيث تبنوا السنوات السلوقية «Silukku» أي (311 ق.م). وما عدا ذلك فقد استخدم الرافديون طريقة تأريخ خاصة تعتمد على ذكر سنوات حكم ملوكهم ويظهر من خلال ذلك ثلاث طرائق:

1 . ذكر رقم سنة حكم الملك مثال ذلك: . السنة الثانية عشرة من (حكم) نبونيد – Nabu na'id ملك بابل.

2 . أو ذكر سنة الحكم نسبة إلى حدث مهم وقع قبلها بسنة مثال:

السنة التي فتحت فيها أيسين وأوروك (من قبل حمورابي).

3 . أو ذكر اسم سنة الحكم محدداً بحضور شخصية مهمة في المملكة، ويكون الملك في طليعة ذلك، وتأخذ كل سنة أسماً وهو ما يعرف بالآشورية باسم ليمو Limu.

وقد استخدم السومريون في عصور السلالات الباكرة الطريقة الأولى، وكذلك طريقة تدعى بالا Bala ، وهي تعادل الطريقة الثالثة آنفة الذكر. واستخدم البابليون طريقة التاريخ «بأسماء السنوات» حتى العصر الكاشي حيث استبدل بالطريقة الأولى حتى العصر السلوقي. وظل الآشوريون يستخدمون نظامهم الخاص ليمو خلال تأريخهم الكامل(6).

ونلاحظ أنه لا يمكن الاستفادة من طرائق التأريخ السابقة أي التأريخ بأسماء السنوات المهمة أو سنوات حكم الملوك إلا إذا توافرت لدينا لائحة أو قائمة بأسماء جميع السنوات السابقة متتالية وكذلك قوائم متسلسلة بأسماء الملوك وقوائم السلالات الحاكمة بكاملها. ولحسن الحظ أن معظم قوائم السلالات الحاكمة في المشرق القديم وبخاصة العراق، قد وصلت إلينا كاملة وهذه بعض الأمثلة(7):

---

(6) من أجل كل ما يتعلق بالتأريخ القديم انظر موسوعة كامبردج التاريخ القديم:
وكذلك قاموس الآشوريات:
CAH 3, I, 1, PP. 194 – 197.
RLA. II, PP. 412 – 457.

(7) نجد لائحة كاملة لجميع قوائم السلالات الحاكمة في:
D. O. Edzard; A. K. Grayson , «Koniglisten und Chroniken». RLA VI. PP. 77 – 135.

قائمة بأسماء سنوات حكم حمورابي [8] :

1] . عندما اصبح حمورابي ملكاً.

2] . عندما أقام العدل في البلاد.

3] . عندما بنى معبد زقورة الآلهة نا نا Nanna العظيمة في بابل.

4] . عند إعمار سور كاجيا Gagia المقدس.

5] . عندما أشاد (ما يدعى) كاشبارا en Ka – ash – bar – ra (وهذه كلمة سومرية غير معروفة المعنى).

6] . عندما أشاد (ما يدعى) Shi r للآلهة لاز.

7] . عندما فتح إيسين وأوروك.

8] . عندما فتح بلاد إموت بعل Emut bal؟

9] . عندما بنى القناة (المسماة) حمورابي (قناة) الرخاء.

وهكذا فإن سنة فتح مدينتي أسين ووروك تعادل السنة السابعة من حكم حمورابي.

. قائمة بأسماء ملوك سلالة بابل الأولى (القديمة) (القائمة ب B) [9]:

1 . سومو أبي Sumuabi ، ملك (حكم) 15 (14) سنة.

2 . سومو إيل Sumulail 35 (36) سنة.

3 . سابو Sabu ابنه حكم كملك 14 سنة.

4 . إبيل سين Apil – Sin ابنه حكم كملك 18 سنة.

5 . سين . موباليط Sin – muballit ابنه حكم كملك 30 (20) سنة [10].

6 . حمورابي Hammurabi ابنه حكم كملك 55 (43) سنة.

ونجد رصداً لجميع الدراسات السابقة.

(8) ن. Roux P. 34. ANET 3, P. 271.

(9) ن. Roux. P. 35. وكذلك ANET3 P. 271. .

(10) تدل الأرقام بين قوسين على الرقم الحقيقي، بينما الأخرى فهي مشكوك بها، فقد جمعت من خلال نصوص مهمشة وغير واضحة.

7 . سمسوا يلونا Samsu – iluna ابنه حكم كملك 35 (38) سنة.

8 . إلخ...

فإذا علمنا أن اللائحة هذه تتضمن أحد عشر ملكاً، فهي تحمل التعبير: أحد عشر ملكاً، السلالة البابلية، فنعلم حينئذ أن حمورابي البابلي الشهير هو الملك السادس من هذه السلالة، وأن أباه كان سين موباليط وابنه كان سمسو إيلونا وأنه، أي حمورابي قد حكم مدة 43 سنة. هذا ويمكن أن يشير كاتب السلالة القديم إلى عدد سنوات حكم السلالة بالكامل.

القائمة الآشورية المسماة ليمو

وهي سنوات حكم أدد نيراري فقط (810 . 783)[11]:

1 . أدد نيراري Adad nirari ملك بلاد آشور (حملة) ضد مانا Mana.

2 . نرجال إيليا Nergal – ilia ، تورتانو Turtanu (القائم العام) ضد جوزانا Guzana.

3 . بعل دّيان Bel – daian نجير إقالي nagir ekalli (بطل القصر ضد مانا.

4 . آشور تكلا Ashur - takala، أبركو abarakku (خازن) ضد أرباد Arpad.

5 . إيلي . ايتيا Ili – ittia ، شكين ماتي Shakin mati (حاكم أشور) ضد مدينة خزازو Hazazu. (إعزاز).

6 . نرجال . إرش Nergal – eresh (حاكم) راصبا / رصافة / Rasappa، ضد مدينة بعلي Ba'li.

تغطي هذه اللوائح فترات مختلفة. ويقتصر بعضها على مملكة وسلالة واحدة وحسب. وهناك سلالات أخرى، مثل السلالة البابلية ب السابق ذكر مطلعها أعلاه،

(11) ن: RLA, II. PP. 428 – 429; ARAB, II. P. 433.

تتضمن أكثر من سلالة متتالية، على ما يبدو. وهناك قوائم أخرى تتضمن سلالات دام حكمها عهوداً طويلة وفق ما تذكر، ولكن هذا لا يخلو من المبالغة في كثير من الأحيان. ومثال ذلك «القائمة السومرية الملكية» التي تضم ملوكاً أسطوريين قبل الطوفان حتى الملك دمق إيليشو Damiq – ilishu (1816 . 1794) آخر عواهل سلالة أسن الأولى[12].

إن الحصول على تأريخ بالأرقام وفق التقويم الميلادي سواء أكان قبل الميلاد (المسيح) أو بعده أمر مستحيل دون العمل التاريخي المهم الذي قام به المؤرخ الإغريقي الكسندر كلاديوس البطليمي Alexandrie Claudius Ptolemee الذي دَوَّن في أحد مؤلفاته قائمة بأسماء جميع ملوك بلاد بابل وبلاد فارس من عهد نبو نصر Nabu – nasir 747 – 734 ق.م، إلى الاسكندر الكبير (336 . 323 ق.م)[13].

وقد دعيت هذه بالقائمة البطليمية القانونية «Canon de Ptolemee» وإضافة إلى ذكر أسماء أولئك الملوك فإنها تذكر الحوادث الكونية المهمة التي ظهرت في عهود بعضهم.

وهكذا نستطيع من خلال بعض المقارنات بين المعلومات المتوافرة إعادة ترتيب قائمة بأسماء ملوك آشور . ليمو الطويلة والمتقطعة، التي تغطي عصراً يمتد من بين أدد نيراري الثاني (911 . 891 ق.م) وآشور بانيبال Ashur banipal (668 . 627). وتُدون هذه اللائحة أسماء السنوات (أي الآشورية) والظواهر الكونية في عهد بعض الملوك. فبين 747 و 362 قبل الميلاد يتصادف أسماء الملوك وزمن حكمهم مع أولئك المدونين في القائمة البطليمية، بما في ذلك خسوف الشمس والظواهر الكونية الأخرى. وبمعنى آخر اكتشف العلماء من خلال ما تقدم أن خسوف الشمس، وفق القائمة

---

(12) ن:

T. Jacobsen . The Sumerian King List, Chicago 1939; ABC, P. 269.

(13) حول الموضوع انظر:

F. Schemitke , Der Aufbau der babylonischen Chronologie, Munster. 1952; S. M. Burstein, The Babyloniaca, Malibu (Calif.) 1978, P. 180.

الآشورية ليمو، قد حدث في شهر سمانو Simanu (آيار . حزيران) من السنة الثانية لحكم الملك «آشور دان» الثالث، أي حدث علمياً في 15 حزيران 663 ق.م.

وهكذا فإن هذا التاريخ هو الفترة الزمنية المحددة للسنة الثانية من حكمه وهو الزمن الذي يجب إضافته عكسياً إلى كل عهد من ملوك لائحة ليمو الآشورية وبذلك نصل إلى أن حكم آشور دان كان بالتحديد بين 773 و 755 ق.م.

وبذلك، فإن التأريخ المطلق لبلاد ما بين النهرين قد ثُبت نهائياً بدءاً من 911 قبل الميلاد.

أما التأريخ للسنوات قبل هذا التاريخ فإنه أقل دقة مما سبق. ويجب أن يتم التأريخ لها وفق لوائح سنوات حكم السلالات وأسمائها من الناحية النظرية، إلا أن الأخطاء التي تقع مؤكدة وثابتة، لأنها، أي تلك اللوائح، تتضمن أخطاءً كثيرة بحد ذاتها كأخطاء الناسخ أو تهشمها ونقصانها، كما لا نمتلك أمثلة متطابقة لأكثر من عهد للحكم. ونعلم من جهة أخرى، ومن خلال مقارنات مختلفة بين المعاهدات والملوك المتعاصرين. أن بعض السلالات التي قدمت لنا على أنها متعاقبة، هي في الواقع متعاصرة بجزء أو بكل.

ولكن يمكن القول إن السلم التأريخي لبلاد الرافدين قد استقر فوق أسس صحيحة بنسبة كبيرة. ولكن لم يتحقق هذا إلا بعد زمن طويل وعمل شاق[14] ولذلك كان المؤرخون (أوبرت Oppert) وغيره يعتقدون أن حكم حمورابي البابلي مفتاح التأريخ الرافدي، قد بدأ عام 2394 قبل الميلاد وفي الألف الثالث. وتم تخفيض هذا الرقم إلى 2003 ق.م من قبل تتورنو دنجن Thureau – Dangin الفرنسي عام 1927.

(14) هناك موجز لهذا العمل وكيفية التوصل إلى تأريخ الأحداث وسنوات المحكم في:
A . Parrot, AM. II. PP. 332 – 438.

أما في أيامنا هذه فإن هذا الرقم قد وصل 1848 من قبل سيدرسكي Srdersky وإلى عام 1704 من قبل فايدنر Weidner، ولكن معظم المؤرخين قد أقروا تأريخاً «متوسطاً» الذي يجعل حكم حمورابي بين 1792 إلى 1750 قبل الميلاد[15].

وهذا التاريخ هو الذي نعتمده نحن في جميع مؤلفاتنا رغم ما يثيره من عيوب تؤثر في التأريخ الدقيق لبلاد الرافدين.

وقبل أن ننهي بحثنا عن التأريخ الرافدي وفق أسماء السلالات وسنوات حكمها وتطابق أحداثها مع الأحداث الكونية، يجب الإشارة هنا إلى طرائق التأريخ الحديث التي تعتمد على المعطيات الفيزيائية والكيميائية، وبخاصة الطريقة المعروفة اليوم بالكربون (14) أو الإشعاع الكربوني وهذه لمحة عن ذلك:

نعلم أن جميع الخلايا الحية مكونة من جزئيات ذرية تحتوي على الكربون. وإن الوزن الذري لمعظم هذا الكربون هو (12)، ولكن جزءاً صغيراً منه مؤلف من ذرات مشعة وزنها (14). وينشأ هذا الكربون في الجو من التقاء ذرات الآزوت والنترون بتأثير أشعة كونية حيث يتأكسد مباشرة في طبقات الأُوزون ويتحول إلى غاز الكربون.

وهكذا عند تساقط الأمطار فإن الكربون 14 (C_{14}) يهطل معها ويتم امتصاصه من قبل الحيوان والنبات (الأحياء والنبات).

إن الكربون 12 ثابت، بينما يتحول الكربون (14) إلى آزوت باعثاً إشعاعات ضئيلة جداً. وتبقى كمية الكربون 14 دون تبدل طالما أن الجسم الحيواني أو النباتي يبقى حياً،

---

(15) لقد اقترح هذا التأريخ سدني سميث في مقالة مشهورة بعنوان آلالاخ والتأريخ.

Sidney Smith, Alalakh and Chronology, London, 1940.

كما أن التأريخ للسلالة الأكادية قد وضع من قبل:

J. A. Brinkman, in, A. L. Oppenhiem. Ancient Mesopotamia, Chicago, 1964, PP. 335 – 352.

كما يستحسن استخدام تأريخ السلالات السومرية الباكرة لـ:

E. Porada; in, R. W. Ehrich (Ed). Chronoligies in Old World Archaeology, Chicago, 1965, PP. 167 – 179.

لأنها تتجدد باستمرار. ولكن بعد الموت فإنها تتضاءل بصورة منتظمة وتفقد نصف كميتها خلال 5568 سنة. وهكذا يمكن إجراء مقارنة بين عينتين عضويتين جوهريتين، أحداهما القديمة (المجهولة) والأخرى حديثة ميتة ومؤرخة في عام 1950 وهي السنة رقم (0) قبل الآن، فنستطيع تحديد تاريخ العينة المطلوبة بعد عملية حسابية بسيطة.

لقد ابتدعت هذه الطريقة عام 1964 من قبل الأستاذ ليبي W. F. Libby من جامعة شيكاجو Chicago وطبقت حتى الآن في كثير من المخابر العالمية. ولكن هذه الطريقة لا تطبق إلا على المواد العضوية (كبقايا النبات والحيوان) التي يعثر عليها أثناء الحفائر الأثرية. ورغم ارتفاع تكاليف هذه الطريقة إلا أنها تستخدم كثيراً في حفائر الرافدين الأثرية. ولكن يجب أن نعلم أن لهذه الطريقة حدوداً يقع الخطأ الكبير بعدها. وذلك عند رفع هذه البقايا من أماكن الحفر وما قد يطرأ عليها من عدم الدقة واختلاطها ببقايا أكثر قدماً أو حداثة وبخاصة اختلاف زمن تخزين وتركيز الكربون 14 في الجو وكذلك ضمن الأحياء، كل هذا يأتي من خلال ملاحظات علمية حديثة. وهناك تطوير مستمر للتأريخ بهذه الطريقة. وهناك طرائق أخرى تعتمد على عدد طبقات القشور في الأشجار، يمكن لها المساعدة على التأريخ الأقرب إلى الحقيقة.

تعد هذه الطرائق ومنها الكربون 14 مفيدة جداً للتأريخ في مرحلة ما قبل التأريخ حيث أن خطأها الذي قد يتراوح بين مئة إلى مئة وخمسين سنة ليس ذا أهمية كبيرة.

ولكنها لا تستخدم إطلاقاً لتحديد تواريخ محددة فيما بعد التاريخ.

وهناك طرائق علمية حديثة جداً للتأريخ ما تزال قيد التجربة، ولم يحن وقت الحديث عنها. وهي ما كيميائية أو فيزيائية [16].

(16) من أجل هذه الطريقة وغيرها راجع جورج رو G. Roux السابق ص 32 وما يلي.

البحث والتنقيب عن الآثار في الرافدين:

4 . النهضة الأوروبية . الاستعمار ونهب الآثار:

يمكن لنا أن نتساءل منذ متى تحولت المدن القديمة إلى أطلال ومن ثم إلى تلال مطمورة بغبار الزمن؟ لقد أقام هيرودوت المؤرخ الإغريقي الشهير في بابل بعض الوقت من خلال رحلته إلى العراق أو بلاد الرافدين، وقد حدث هذا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

لقد كانت المدينة قائمة إذن، ولكنه لم يذكر شيئاً عن مدينة نينوى المهدمة.

وقد مرَّ كيزنوفون Xenophon وهو يقود حملة من عشرة آلاف رجل أغريقي في بلاد الرافدين عام 401 ق.م وعبر بلاد آشور ومدنها الكبيرة دون أن يلاحظ فيها شيئاً. وقد تحدث سترابون Strabon عن بابل كمدينة مهدمة في القرن الأول الميلادي، وأضاف أنها «مهجورة بكاملها تقريباً»[17]. ثم انطمرت مع غيرها بعد مرور أكثر من ألف عام، وتراكمت طبقات الغبار والتراب فوق المدن المزدهرة سابقاً التي طواها النسيان. إلا أن كثيراً من المؤرخين العرب لم ينسوها ولم ينسوا أمجادها العظام إلا أنهم لم يفكروا بحفرها، في حين نسيت أوروبا تماماً ذلك الماضي البعيد، حتى القرن الثاني عشر الميلادي عندما تجول بنيامين الطليطلي Benjamin de Tudela في بلاد الرافدين وتبعه الألماني راولف Rauwolff. بعد أربعة قرون، ولكن الاثنين لم يقدما شيئاً علمياً يذكر أثر عودتهما.

لقد شعر الغرب الأوروبي بفائدة الشرق القديم له بدءاً من القرن السابع عشر الميلادي. وكان ذلك بعيد قراءة الوصف الآخاذ الذي كتبه عنه الرحالة الإيطالي بيترو دولا فال Pietro delle Valle، وبخاصة وصفه لبلاد ما بين النهرين Mesopotamia متحدثاً عن الواح صلصالية وقد: «كتب عليها بكتابة غريبة مجهولة». هذه الألواح وغيرها قد عثر عليها الرحالة المذكورة في مدينة أور وبابل

(17) Xenophon, Anabase, III, 4; Steabon, Geographie XVI, 5.

وحملها معه إلى أوروبا عام 1625م. وسرت في أوساط المثقفين في بلاطات الملوك أفكار تبرز أهمية الشرق للدراسات التاريخية وتحركت من أجل ذلك المعاهد العلمية والجامعات لتؤسس مراكز أبحاث خاصة بذلك. وقام ملك الدانمارك فِرد ريك الخامس عام 1761م بإرسال أول بعثة أو حملة علمية إلى المشرق مهمتها جمع المعلومات المختلفة عن الشرق. وقام مدير الحملة كارستن نيبور Karsten Niehbur بنسخ أعداد من النصوص المنقوشة على صخور وأحجار في بيرسبوليس Persepolis في إيران، وعهد بها إلى لغويين متخصصين باللغات المشرقية العربية وأخواتها وذلك بهدف فك رموز تلك الكتابة السحرية الغربية.

ومنذ ذلك الزمن كان جميع الزوار والسائحين الأوروبيين يسعون للتنقيب والحصول على اللقى والكتابات والنفائس! وسرت في أسواق مدن الشرق تجاره (الأنتيكا antika) ونسخ النصوص القديمة. وكان من أشهر رواد المغامرة الشرقية الاكتشافية هم:

1. الكاهن جوزيف بوشان Joseph de Beauchamp وكان فلكياً متميزاً (1786).
2. القنصل البريطاني كلاديوس ريتش Claudius James Rich مستشار الشركة الشرقية البريطانية. بغداد (1807م).
3. جيمس بوكنكهام Sir James Bunkingham (1816م).
4. روبير ميجنان Robert Mignan 1827م.
5. جيمس فريزر James Ballie Fraser (1834). وهو ضابط بريطاني.

وكان أشهر هؤلاء وأكثرهم علماً:

6. هنري راولنسون Sir Henry Gresvvicke Rawlinson (1895 . 1815م) ويجب أن نذكر تلك الحملة البريطانية المهمة في بداية القرن التاسع عشر أي حملة الفرات والدجلة «Tigris – Euphrates Expedition» عام 1835 . 1836 م وكانت بإدارة شيسني F. R. Chesney الذي قام بدراسة حوضي الفرات والدجلة وقدم كثيراً من المعلومات عنهما وعن البلاد المجاورة لهما.

وكانت أعمال معظم الرحالة السابقين تنصب على الوصف والقياس والتقاط ما يمكن التقاطه دون أية أعمال تنقيب باستثناء بوشان وميجنان اللذين قاما بفتح بعض الحفر في بابل.

5 . نشوء علم الآثار وبدء التنقيب المنظم:

كان أول عمل تنقيبي منظم قد تم بفضل القنصل الفرنسي في الموصل المدعو بول أميل بوتا Paul – Emile Botta عام 1842. وقد بدأ أعماله هذه في العراق في موقع خورساباد Khorsabad، وتم له اكتشاف الآشوريين بكل معنى الكلمة.

وسار على خطاه الإنكليزي هنري لايارد Henry Layard في موقع آشوري آخر يدعى نمرود Nimrud.

وعندما سمع قنصل فرنسا في البصرة أن بعض الناس قد عثروا على بعض التماثيل من خلال بعض الحفريات اللصوصية قرر أن يذهب بنفسه ويحفر في ذلك الموقع ويدعى تللو Tello وكان نتيجة حفره اكتشاف السومريين.

ولم يمض بضع عشرات من السنين حتى تبين للعالم الأوروبي وأوساطه العلمية أن الرافدين يمكن أن يقدم كنوزاً علمية ومادية لا تقل عن مثيلاتها في بلاد الإغريق أو وادي النيل في مصر.

لقد كان هذا الجيل من الرواد المكتشفين من الهواة المغامرين وليسوا من العلماء المتخصصين فلم يتبعوا طرائق منهجية منظمة في الحفر، ولم يهتموا بعواقب التنقيب العشوائي. وكان جل اهتماماتهم ينصب على العثور على التماثيل والأدوات والمجوهرات وغيرها من كنوز، ونقل هذا إلى أوروبا وعرضه عل الجمهور الذي يصفق ويعجب بتلك الغرائب والكنوز، ويدفع المال وفيراً ثمناً لها أو لمشاهدتها في المتاحف العامة أو الخاصة، ولم يكن هؤلاء الهواة ليهتموا بالفخار واللبن والجدران المهدمة! بل كانوا يهدمون الكثير للعثور على مبتغاهم. ورغم ما يمكن أن تؤثر في مشاعرنا تلك الهجمة غير المنظمة على كنوز المشرق إلا أن ذلك قد كان المفتاح الذي سيفتح الباب على مصراعيه لندخل في رحاب عالم قديم جديد لا يقل أهمية عن عالم جيرانه الحضاري

المصري والإغريقي. وكان بعض العلماء ممَّن هم أقل شغفاً بالمظاهر والجواهر قد انكبوا على دراسة تلك الكتابات السحرية لفك رموزها وقراءتها وفهم ما تضمنه من أفكار وأسرار. وكان هذا عملاً علمياً جباراً وصعباً، ولعل سرد قصة فك الرموز أمر يتطلب مساحة أوسع مما هو مخصص لها هنا ونحيل القارئ إلى كتابنا «مقدمة في علم الأكاديات» الصادر عن دار الأبجدية بدمشق 1990، الذي فصلنا به هذا الموضوع[18] وبرز دور الجامعات الأوروبية في هذا المضمار.

وندين بالمحاولات الأولى لفك رموز الكتابات الرافدية المسمارية إلى جروتفند Grotefen استاذ اللغة الإغريقية في جامعة جوتنجن Gottingen حيث أن النص المسماري قد كتب باللغة الفارسية القديمة ونسخه نيبور في بيرسيبوليس. وندين كذلك إلى راولنسون الذي أرق نفسه وهو ينسخ كتابات مسمارية طويلة ثلاثية اللغة منقوشة من قبل داريوس (دارا) في أعلى صخرة حملت اسم بهستون Behistun في إيران. وبدأ بالفعل بترجمتها... وكان ذلك بين أعوام 1835 . 1844 . وظهر أنها لغة بابلية قديمة وقد كتب النص نفسه بالفارسية القديمة وبالعيلامية. فكان هذا النص بالنسبة لعلم الآشوريات كحجر الرشيد بالنسبة لعلم المصريات. ولكن باختلاف صف صعب وهو أن اللغات الثلاث قد كتبت بالخط المسماري غير المقروء حتى ذلك الزمن.

يجب الإشارة إلى العالم الإيرلندي ادوارد هنكتر Edward Hincks وزميله الفرنسي جول أوبرت Jules Oppert وثالثهما راولنسون حيث شكلوا ما يدعى في أوساط الأشوريات «بالثلاثي المقدس» للدراسات المسمارية. ذلك أنهم تمكنوا من التغلب على أصعب معضلة كتابية لغوية، وقد عبر عن ذلك أحد تلامذتهم قائلاً «لقد فتحوا

(18) حول تاريخ فك رموز الكتابات المسمارية فلا نعرف بالعربية سوى كتابنا المشار إليه أعلاه. ولكن أول رواية لهذا التاريخ هي:

C. H. Fossey, Manuel d'assyniologie, I. Paris , 1904.
S. A. Pallis, The Antiquity of Iraq. Copenhagen 1926.

الصفحات المغبرة من (كتب) الصلصال المطمورة في أرجاء المشرق القديم»[19].

لقد بدأ فك رموز الكتابة المسمارية باللغة الآشورية عام 1802 وكذلك البابلية، ولكن لم يتأكد فك رموزهما الصحيح إلا عام 1847. ولم تعرف السومرية أيضاً قبيل عام 1900، وتبين أن الآشورية والبابلية ليستا إلا لهجتين للغة الأكادية الأم لهما ولجميع اللغات العربية أو السامية القديمة، وبقي اسم «علم الآشوريات» يطلق على جميع الدراسات الشرقية والرافدية. رغم أن كثيراً من المعاهد والجامعات أصبحت تطلق عليه اسم علم الأكاديات وهذا ما فعلناه في كتابنا آنف الذكر. هذا ولم يعد اليوم من سر في أية لغة سواء أكانت أكادية أم سومرية أم عيلامية، ما عدا بعض الصعوبات الباقية في اللغة السومرية. وتضم اللغة الأكادية اليوم أضخم معجم للغة قديمة ولربما حية؟! وقد بلغ عدد النصوص والرقم والألواح الفخارية الصلصالية المكتشفة حتى يوما هذا أكثر من مليون لوح أو رقم، اشتغل بها وما يزال علماء الآشوريات والسومريات. وقد نشر قرابة النصف والآخر لا يزال قد الدرس والنشر. هذا ولم تقدم أية حضارة في العالم مثل ما قدمته حضارة الرافدين من نصوص أصلية ومباشرة فهي وثائق من الدرجة الأولى بالنسبة للمؤرخ.

لقد دخل العلماء الألمان ميدان الدراسات الشرقية القديمة بتأخر عن بقية الأوروبيين بسبب عدم وجودهم كمستعمرين في المشرق. ولكن مساهمتهم العلمية شكلت منعطفاً مهماً في بداية القرن العشرين الماضي. حيث بدأ معهم افتتاح عصر جديد من التنقيب المنهجي المنظم.

فبدأ روبيرت كولدويه أعمال البحث والتنقيب في بابل بين عام 1899 . 1917، وواكبه فالتر أندريه Walter Andrae في موقع آشور العاصمة بين 1903 . 1914. وقاما بتطبيق الطرائق العلمي الحديثة في الحفر، ولم يعد التخمين والقوة والحظ من علائم

(19)

See, S. N. Kraner, The Sumerians , Chicago, 1963. P. 15; G. Roux ibid. P. 39.

الاكتشاف والحفر في الرافدين. وسرعان ما انتشرت الطريقة العلمية الألمانية وتبناها جميع الآثاريين وازدهرت أعمال التنقيب قبيل وبين الحربين العالميتين الأخيرتين، وتم العثور على أهم المكتشفات الأثرية الكتابية وغيرها. ففي تلك الفترة استطاع وولي Wooley أن ينبش ماض مدينة أور العراقية وكركميش في سورية، وكذلك البارون فون أوبنهايم قد شرع بحفر في تل حلف الشهير في سورية، وهينريش Heinrich الذي اشتغل بحفائر موقع أوروك وبدأ أندريه بارو Parrot في موقع تللو ثم في ماري العظيمة.

ونقب البريطانيون في تل العُبيد ونينوى وعربجية Anpachiya hوشكربزر وتل براك في سورية. ودخل الأمريكيون هذا الميدان فنقبوا في كيش Kish وجمدت نصر ونيبور وخفاجة وتل أسمر ونوزي، فقد كان العهد الذي ارتسمت فيه الخطوط الكبرى لتاريخ سورية والعراق القديم، وظهرت خلف العصور التاريخية عصور أخرى موغلة في القدم وحضارات ما قبل التاريخ ذات أهمية بثقافتها وتجاربها الإنسانية.

لقد كانت سورية والعراق. كما هو معروف جزءاً من الدولة العثمانية، وعندما تمكن العرب وحلفاؤهم من ترحيل الأتراك العثمانيين بعيد الحرب العالمية الأولى، حنث الحلفاء آنذاك بريطانيا وفرنسا بوعود الاستقلال للعرب، وبذلك تحولت سورية إلى حصة من نصيب فرنسا والعراق من نصيب بريطانيا. وقامت هاتان السلطتان بإتباع سياسة خاصة فيما يتعلق بالأبحاث والتنقيب، يمكن إيجازها بنهب وسلب جميع اللقى الأثرية المهمة ونقلها من مواطنها الأصلية منذ آلاف السنين إلى متحفي اللوفر في باريس والبريطاني في لندن. ونهضت في الجامعات في هاتين العاصمتين مراكز ومعاهد أبحاث نظراً لملئ خزائنها بالوثائق والنصوص التي بدأت تخرج إلى السطح بعد الحفائر التي قادها الفرنسيون وبريطانيون متخصصون. ولم يتيسر للعراقيين والسوريين إلا مشاركة ضئيلة عن طريق المتاحف الجديدة التي بنيت في بدايات عهود الانتداب. وقد ظل الأمر هكذا إلى أن حصل العراق وسورية على استقلالهما بعيد الحرب العالمية الثانية، وبدأت مرحلة

جديدة حيث راح شبان من كلا البلدين يهتمون على النطاق الرسمي ولكن حجم وأهمية العمل العلمي المطلوب لا تتناسب على الإطلاق مع ذلك الاهتمام الرسمي الذي ما زال ينظر إلى الأمر نظرة اقتصادية. ولهذا فقد بقيت الأعمال والتنقيبات الأسياسية في مواقع المدن القديمة الأساسية بيد علماء أوروبيين وأمريكيين وظل الدور الوطني ضئيلاً لا يُذكر. بينما عاد الألمان بعد الحرب لأخذ دور مهم في حفائر الرافدين مدينة أوروك المهمة، وشرع الأمريكيون حفائرهم في نيبور وأضافوا إليها تنقيباتهم في شمال العراق التي تعود لعصور ما قبل التاريخ. وعاد الفرنسيون إلى موقع ماري والإنجليز إلى نمرود. بينما شارك العراقيون والسوريون في بعض الحفائر مثل طه باقر وعدنان البني سواء إلى جانب بعثات أجنبية أو بشكل مستقل، ولكن يبقى هذا الجهد الفردي دون أهمية العمل العلمي على المستوى القومي. ورغم توسع دائرة العرب المهتمين بالتاريخ القديم، إلا أنه لا يوجد أي تنسيق على مستوى الجامعات العربية فيما يتعلق بالحفائر القديمة رغم توافر الإمكانات المادية والعلمية. في حين فتحت كل من الحكومتين العراقية والسورية الباب على مصراعيه للجامعات الأوروبية، ولذا فهناك عشرات البعثات في كل من سورية والعراق. بينما لا توجد أية بعثة لأي من الجامعات السورية حتى تاريخ كتابة هذه السطور!.

إن واقع الحال، يرينا أن اهتمام الأمريكيين ينصب على مدينة نيبور في العراق وتل ليلان وغيره في سورية. وزاد الألمان من مساهمتهم في توسيع رقعة الحفر في أوروك وتل خويرة. وأسن وجبل عرودة وتل حبوبة الكبيرة في سورية. وساهم بعض العراقيين والسوريين في اكتشاف حضارات ما قبل التاريخ المهمة في سورية وآخرين في العراق.

ولكن، وللأسف، لم يكتشف هؤلاء أي موقع ولم يرتبط اسم سوري أو عراقي باكتشاف مدينة أو محفوظات مسمارية جديدة، نظراً لقصر النظر والإعجاب والفائدة الشخصية من الأجانب.

وزاد الإنجليز من اهتماماتهم في مواقع تل الرماح، وأم الدباغية وأبو صلابيح. وشعر الفرنسيون بأهمية اكتشافهم ماري أكثر فأكثر فراحوا يزيدون الدعم المادي والعلمي

للفريق المنقب. وحفروا وما زالوا يحفرون في لارسا العراقية. وساهم البلجيكيون في الحفائر أيضاً، فظهر نشاطهم في الدير. وساهم الدانمركيون في موقع شمشارة. والإيطاليون في سلوقية والروس في يايم وتب والبولونيون في نمرود. وظهر اليابانيون على مسرح التنقيب بقوة ودفع مادي وعلمي وتكنولوجي في كل من سورية والعراق. وهذا غيض من فيض، دون أن نذكر أسماء جميع المواقع أو الأبحاث الاكتشافات الأولية المهمة ولكن يجب أن نعلم أن جميع المواقع أو أبحاث الكشف الأولية المهمة ولكن يجب أن نعلم أن جميع العواصم والمدن الرافدية الكبرى، وبعض المدن والقرى الصغيرة قد تم التنقيب فيها بشكل أو بآخر. وهناك جهود خاصة لمزيد من التنقيب في مواقع مثل بابل ونينوى ونمرود وأور وهترا وماري وإبلا... وتل ليلان وتل بيدر إلخ.

من جهة أخرى فإن الدراسات الأولية الطبوغرافية وأعمال السبر تدل على وجود أكثر من ستة آلاف موقع للحفر في سورية والعراق بين جبال طوروس والخليج العربي فقط! فهناك إذا عمل كبير يمتد على قرون طويلة... وسيكون أمام الأجيال العربية القادمة مهمات جلى للكشف عن ماضي ثقافتهم.

لقد نشرت جميع ترجمات النصوص والأبحاث التي عثر عليها وكانت لها الأهمية الأولى. وصدرت عن ذوي الاختصاص مئات الكتب والتفسيرات والاستنتاجات. وكانت جهود الآثاريين وعلماء الآشوريين وعلماء الاجتماع والأعراق ضرورة لابد منها لفهم تركيب المعلومات المستمدة من النصوص والآثار. ولا يخفى ما اعترى أفكار الجمهور الأوروبي والعربي من تبديل في نظرته لمصادر تاريخ الحضارة والشرق القديم عامة. كما كان لابد من تطفل بعض الهواة والمريدين، وتقديم بعض شروحاتهم وتفاسيرهم التي تبلبل الأفكار إن لم تسيء إلى أصالة التاريخ العربي القديم.

والخلاصة:

إن المزيد من الدعم المادي والمعنوي لهذا الحقل من الدراسات والسعي لاحتواء ما نشر منه كي يدرس ويعلم في جامعات العرب في الطريق الوحيد لدخولنا عالم التاريخ القديم من بابه العلمي الصحيح.

ولكن للأسف عندما قامت حرب أمريكا وأوروبا ضد العراق عام 2003 تم نهب وتخريب المتاحف والآثار. وقد شهدنا عودة إلى عصور الكوارث والحروب التي عرفتها في العصور القديمة والوسطى التي كان مصدرها إما الطبيعة أو هجومات القبائل والشعوب البربرية المتخلفة القادمة من الشرق والشمال والغرب. ونعلم أن هذه الشعوب البربرية . الهندو . أوروبية كانت وما زالت تطمح بخيرات بلادنا وبإنجازاتها الحضارية الدائمة. كما وتجلت بربرية الغرب بموافقة المتباينة والنفعية من ثورات الشعوب العربية ضد حكامها المستبدين. وما رافق ذلك من تدمير للبنية الحضارية.